.. العداء للسامية

الأصل والصورة

ظهر مصطلح العداء للسامية لأول مرة عام ١٨٧٩ على يد الصحفى الألمانى اليهودى فيلهيلم مار عندما أصدر كتابا بعنوان انتصار اليهودية على الألمانية وكانت تلك الفترة قد شهدت أحداثا اقتصادية ومضاربات عقب الحرب الفرنسية البروسية أدت إلى إفلاس كثير من الأغنياء الألمان فى بروسيا وفرنسا وعدد من دول شرق ووسط أوروبا، وحمل الأوروبيون وقتها المسألة والمسئولية على اليهود، الذين تم اتهامهم بأنهم متآمرون، وبدأت سلسلة من الاضطهادات ضدهم، وفى الحقيقة فإن الاضطهاد الأوروبى لليهود شكل مساحة كبيرة من التاريخ الأوروبى لأسباب كثيرة لعل أهمها الروح العنصرية الأوروبية التى لا ترى الحق فى الإنسانية إلا للأوروبي، والاضطهاد الأوروبى والعنصرية الأوروبية لم تطل اليهود وحدهم بل طالت المسلمين والزنوج والهنود الحمر، فالعنصرية جزء لا يتجزأ من الوجدان الأوروبى والقيم الحضارية الأوروبية.

ولعلنا نفهم المسألة إذا أدركنا أن حرب الاسترداد المسيحية الأوروبية للأندلس إسبانيا والبرتغال شهدت اضطهادا وإبادة لكل مسلم ويهودى على حد سواء، وقد استمرت تلك العملية بصورة أو أخري، ولكنها طالت اليهود فيما بعد أكثر لأن هؤلاء ظلوا كأقليات فى بعض الدول الأوروبية، ولعل تاريخ روسيا العنصرية وألمانيا النازية مفعم بحوادث الاضطهاد تلك، فى حين أن اليهود عاشوا فى بلاد مثل إيران

واليمن والعراق ومصر والمغرب وليبيا وغيرها من البلاد الإسلامية بدون أى مشاكل من أى نوع، وحصلوا على امتيازات وثروات فى طول البلاد الإسلامية وعرضها حتى قيام إسرائيل حين فضل عدد منهم بسبب الغباء والتضليل الهجرة إلى إسرائيل، ولكن من بقى منهم فى إيران أو المغرب أو مصر أو العراق أو غيرها ظل يتمتع بحقوق المواطنة وروح التسامح الإسلامى المعروف حتى اليوم.

استخدمت الجماعات الصهيونية والموالون لها مصطلح العداء للسامية لترعب به كل من ينتقد اليهود أو الإسرائيليين أو الصهيونية، وذلك عندما بدأ التحالف الغربى الصهيونى المعاصر، ولكن حقيقة المصطلح والمشاعر مخالفة لما يستخدم فيه، والصورة المستعملة تخالف الأصل تماما.

العداء للسامية فى حقيقته هو عداء عنصرى أوروبى ضد كل الجنسيات السامية من عرب ويهود وغيرهم، وهو جزء من العنصرية الأوروبية المعروفة، ويمكن لأى متابع للثقافة الأوروبية فى كل عصورها بما فيه ما يسمى بعصر الاستنارة والتنوير أن يكتشف جذور وملامح تلك العنصرية ومنها العداء للسامية بالطبع، بل إن الدكتور عبدالوهاب المسيرى فى موسوعته عن اليهود واليهودية والصهيونية أثبت أن الألمان الذين كانوا يقتلون اليهود فى الحقبة النازية كانوا يستخدمون كلمة المسلمين للدلالة على هؤلاء اليهود وهو ما يكشف مضمون العداء للسامية، وكذا فإن الكاتب الفرنسى هانوتو عام ١٩٠٠ قد زعم فى حواره مع الشيخ محمد عبده أن هناك عيوبا أخلاقية مثل الكسل فى الجنس السامى على عكس الآرمى لأسباب تتصل بالعقائد، ورد عليه الشيخ محمد عبده مفنداً ذلك ومدافعا عن العرب والمسلمين واليهود.

فى إطار الروح العنصرية والعداء للسامية حاول الأوروبيون التخلص من اليهود فى أوروبا ـ كزبالة بشرية ـ فنشأت فكرة، إنشاء وطن لهم فى فلسطين لتحقيق هدف التخلص منهم، ولاستخدامهم كجماعة وظيفية تقوم بدور الوكيل عن الغرب ـ ثم أمريكا ـ ومفرزة عسكرية متقدمة ورأس جسر للغرب فى قلب العالم العربى والإسلامى لمنع نهضته والكيد له وضربه كلما كان ذلك مطلوبا على يد هذه الجماعة الوظيفية، وهكذا نشأت فكرة الصهيونية أو إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فى

أروقة أجهزة المخابرات ودوائر وزارات الخارجية الأوروبية منذ نابليون بونابرت الذى دعا إلى ذلك فعلا وحتى وعد بلفور ١٩١٧، وقد تلقف عدد من اليهود غير المتدينين الفكرة ودعوا إليها بدءا من هرتزل ١٨٩٧ وانتهاء بوايزمان وبن جوريون حتى تأسست الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ وهكذا فإن الذين تلقفوا الفكرة من اليهود الصهاينة إنما ساعدوا الغرب وكانوا أداة له للتخلص من اليهود فى أوروبا والنكاية فى العالم العربى وتحويل هؤلاء اليهود الصهاينة إلى جماعة مرتزقة تقوم بدور العدوان لحساب الغرب، وهكذا فإن إنشاء دولة إسرائيل فى حد ذاته هو نوع وتجسيد للعداء للسامية وأحد إفرازات هذا العداء وأكبر تجلى له، وقد أدرك هذا الأمر عدد من اليهود غير الصهاينة الذين رفضوا قيام إسرائيل ولا يزالون يدعون إلى إزالتها، ورفضوا الفكرة الصهيونية من أساسها باعتبارها فكرة معادية لليهود واليهودية وأوامر الرب على حد سواء، والأمر كذلك بالفعل، ولعل جماعة ناطورى كارتا بمن فيها من يهود وحاخامات خير مثال على ذلك.

نحن كعرب وكمسلمين لسنا معادين للسامية، لأننا لن نعادى أنفسنا، بل العداء للسامية فى جوهره موجه لنا نحن، وإسرائيل هى التجسيد الأكبر للعداء للسامية، وهكذا فإن النضال من أجل إزالة إسرائيل هو جوهر ومضمون النضال ضد فكرة العداء للسامية ونحن أيضا لسنا معادين لليهود واليهودية، لكم دينكم ولى دين ، ومطالبون بالعدل مع غير المسلمين والتسامح معهم ولكننا فى نفس الوقت شديدو العداء للإسرائيليين وكل من يعيش فى فلسطين المحتلة من اليهود ما عدا اليهود من أصل فلسطينى وهم عدة آلاف فقط وندعو اليهود الذين يعيشون فى فلسطين المحتلة إلى مغادرتها والعودة من حيث أتوا، وندعو الدول العربية والإسلامية إلى فتح أبوابها لعودة من يريد العودة من اليهود من إسرائيل للعيش فى تلك البلاد وذلك لحل المشكلة الفلسطينية ومن لا يريد أن يترك فلسطين لأهلها، فإنه يستحق بالتالى القتل وهو مجرم وسفاح، ومغتصب، وهكذا فنحن ندعو إلى الكفاح المسلح لتدمير إسرائيل وتدمير هذا الكيان الاستعماري، ونؤيد العمليات الاستشهادية ضد كل إسرائيلى فى فلسطين المحتلة، لأنه ببساطة مغتصب يستحق القتال والقتل، ولن

تسقط عنه صفة المغتصب ما لم يرجع من حيث أتى أو أتى آباؤه ويترك فلسطين لأهلها الشرعيين.

لا يعنينا بالطبع مناقشة ما إذا كان اليهود حقا يتآمرون على الشعوب ويستحقون بالتالى الاضطهاد الذى وقع عليهم، أم أن ذلك كان نوعا من العداء الوجدانى الداخلى المتصل بالمسيحية أو غيرها لليهود بسبب موقفهم من المسيح، كما لا يعنينا إن كانت البروتوكولات المنسوبة لهم صحيحة أم ملفقة ولا يعنينا الحديث عن موضوع استخدام دم مسيحى لفطير صهيون يوم عيد الفصح، أو غير ذلك مما يقال عن اليهود، الذى يعنينا أننا نرفض الظلم الذى وقع على أى إنسان حتى لو كان يهوديا، ونقبل أن يحاكم كل من يتآمر على شعب من الشعوب وينال عقابه فردا كان أو جماعة، ويعنينا أيضا أن ندافع عن حقوقنا المشروعة فى فلسطين بكل الوسائل بما فيها العمليات الاستشهادية ضد كل ما هو إسرائيلى وفى كل مكان فى العالم، ويعنينا أن نفهم أن إسرائيل فكرة صهيونية، وإفراز غربى أيضا وألا تخدعنا تصريحات هنا وهناك عن حقيقة أن إسرائيل مجرد عصا يمسك بها الغرب وأمريكا لقمعنا ونهبنا والقضاء على حضارتنا وربما وجودنا وأنه يجب تحطيم العصا ومن يحملها أيضا، وأن المعركة طويلة وصعبة وقاسية، وفى كل الأحوال نحن ضد العنصرية ولا نقبل أن نمارسها أو يمارسها أحد علينا أو على غيرنا، وضد الظلم والعدوان وضد المشروع الصهيونى الأمريكى الغربى الذى هو معاد للسامية فى جوهره، وليس من العدل ولا الإنصاف ولا المصلحة لنا أن نتورط فى الدفاع عن هتلر أو الفرح بتصريحات لوبان ضد اليهود أو غيرها من الممارسات العنصرية الأوروبية لأنها تشملنا أيضا.

وهكذا فإن العداء للسامية كان هو السبب فى ظهور إسرائيل ودعمها واستمرارها، لأن العداء للسامية وجدان غربى موجه ضد العرب والمسلمين قبل اليهود.